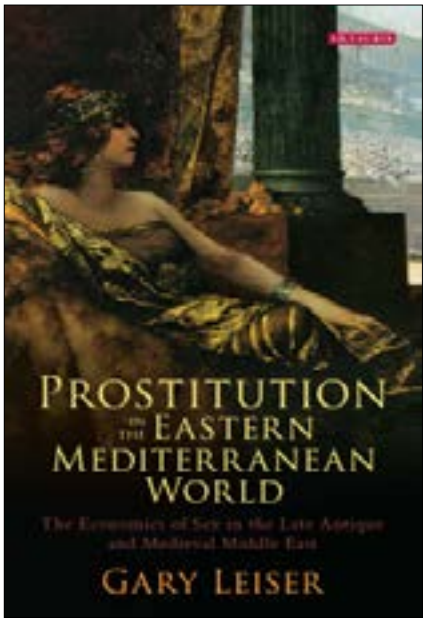


تاريخ



يتعامل «البغاء في عالم البحر المتوسط القديم - اقتصاد الجنس في الشرق الأوسط من «جامعة والوسيط» (IB taurus – 20١7) مع مادة نادراً ما تتعرض لها الدراسات السوسولوجية المرتبطة بمجتمعات شرق المتوسط وجنوبه، من أنّ الجنس يعد من أقوى المؤثرات في السلوك البشري.

مؤلفه غيري لايزنر، الحاصل على شهادة الدكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط من «جامعة بنسلفانيا» وأصدرت مؤلفات عديدة عن تاريخ الإقليم، يقول إن هدف المؤلف تأسيس إطار عام للإبحاث المستقلة والإجابة عن بعض الأسئلة الأساس، وكذلك الحثّ على طرح أسئلة أخرى.

موضوعا المؤلف الرئيسان هما: الاستمرارية الدهشة في مسألة ممارسة البغاء في المرحلة الانتقالية من الحكم المسيحي إلى الحكم الإسلامي، أما الثاني، فهو ضرورة النظر إلى البغاء كونه مؤسسة خدمية اتخذت أشكالاً مختلفة في أزمنة متفاوتة وأمكنة مختلفة، ضمن حدود موضوع المؤلف

من هذا المنطلق، فإن الكاتب لا يقبل تعريف البغاء أو شرحه على أنه «أقدم مهنة في تاريخ البشرية»، هذا، برأيه، ادعاء عتيق مبسط يعكس جهل من يتبناه، أو أنه «أسوأ أشكال استغلال المرأة في العصور الوسطى»، وهو ادعاء فكري قائم على أفكار مسيئة، وكلاهما رايان ساكتان يعكسان نظرة ذات بعد احادي.

تَعامَل الكاتب مع المادة من منظور تاريخي، فقسم المؤلف إلى الفصول الأتية: «بائعات الهوى في شرق المتوسط في العصور القديمة»، «بائعات الهوى في جزيرة العرب في العصور الوسيطة»، «بائعات الهوى في مصر في العصور الوسيطة»، «بائعات الهوى في بلاد الشام في العصور الوسيطة»، «بائعات الهوى في الأناضول في العصور الوسيطة»، وأنهى الكاتب المؤلف بفصل اعتراضي يحمل عنوان «البغاء كحُفَرٍ للنجارة مع الأقاليم البعيدة».

يُقرُّ الكاتب بوجود معوقات أمام عمل مماثل، أولها أن الحديث في موضوع الجنس كششاط خدمي مشحون بالمصطلحات الأخلاقية، ملاحظاً أن المصطلح الإنكليزي، وكافة اشتقاقاته ذات أبعاد أخلاقية، ما يقيد أي بحث موضوعي. هذا تحديداً ما دفعه إلى عدم قبول المصطلح السائد prostitution، فيوظف عبارة public woman بدلاً من منه prostitute. ويقدم تعريفاً للبغاء خاصاً بهذا العمل هو «بيع النساء خدماتهنّ الجنسية للرجال على نحو متواتر وخال من التمييز».

المعوق الرئيس الثاني الذي لفت الكاتب الانتباه إليه، هو غياب صوت بائعات الهوى ومعرفة موقفهن ورايهن في هذه المهنة/ الخدمة وفي الزبائن، ولا تعرف تجاربهن الشخصية، إضافة إلى أن المراجع التي تتحدث عن الموضوع جاءت دائماً بقلم رجال. وفي هذا المقام، بلغت الكاتب إلى حقيقة عدم توافر أي أعمال لبسان الرجال الذين كانوا يمارسون منهن تعددها العامة «مهينة/ فذرة»، مثل القصابة والدباغة.

ويضاف إلى ذلك كله عدم توافر أي مؤلفات تعود إلى العصور موضع البحث متخصصة في هذه المادة بما يفرض على الكاتب البحث في جمل وملاحظات متناثرة في أعمال كثيرة من شعر، وأدب، ورحلات، وكتب في التاريخ والطب والجغرافيا والتجارة وغيرها، وهو ما قاده إلى تفحص المراجع الأولية والدراسات الأكاديمية تفحصا دقيقا، مقدما ترجمات دقيقة للتصوص ذات العلاقة، ومثريا المؤلف بمصورات عديدة.

عثر الكاتب في كتابات الإخباريين على إشارات،

«مهنة» تعكس التحولات السياسية

والاقتصادية والاجتماعية التي مرّت بها المنطقة

غيري لايزر هو ثقا صناعة الاذة على صفاف المتوسط

نادرأما تقارب الدراسات السوسولوجية المرتبطة بمجتمعات شرق المتوسط وجنوبه، موضوع

الدعارة، مع أنّ الجنس يعد من أقوى المؤثرات في السلوك البشري، من هنا تأتي أهمية كتاب «البغاء

في عالم البحر المتوسط القديم - اقتصاد الجنس في الشرق الأوسط القديم والوسيط» (IB taurus _ 20١7).

نظرا إلى ندرة المواد والمعلومات المتوافرة. لجا المؤلف إلى ملاحظات متناثرة في أعمال كثيرة من شعر، وأدب، ورحلات، وكتب في التاريخ والطب والجغرافيا والتجارة

زيد هني

من عهد كاليغولا (37-4١ ت س)، كما استعان

بأعمال القديس ثيوفانس المعترف (760 - 8١8 ت س) الذي كتب أن أسقف الإسكندرية ثيوفيلوس، طلب من الإمبراطور ثيودوسيوس (٩0-38 ت س) السماح بتطهير معبد سراسيمس في الإسكندرية وتحويله إلى كنيسة، مشيراً إلى ممارسات الوثنيين الجنسية فيه. كما تتوافر شهادة أخرى

عن عهد ثيودور، إلى ارتباط ممارسة البغاء وتواجد بائعات الهوى في مراكز المدن حيث يكثر الرجال، أي في الأسواق والقوافل وأمكنة العبادة والحمامات والسيرك وتجمعات الجند والمرافئ والأسواق والألعاب. البغاء وبائعات الهوى في الفترة الوسيطة المتأخرة ويبحثه ضمن الإطار السياسي والاجتماعي. يركز هذا القسم على دراسة القوانين والتشريعات التي كانت سائدة في الإقليم في العهد البيزنطي، الممثل للعصر الروماني في الشرق. ليوكد أن الإمبراطورتن لم تمنعا البغاء، بل وضعتا ضوابط قانونية، أهمها دفع بائعات الهوى الضرائب، وفي بعض الأحيان حصر هذه الخدمة أو المهنة . قل ما شئت . في امكنة محددة داخل المدن.

من ورقة بردي، تعود إلى القرن الرابع تحوي خير مطالبة امرأة بالتعويض عن مقتل ابنتها بائعة الهوى لفقدانها دخلها الذي كانت تعطيه للقواد.

كما يعثر على إشارات تعود إلى القرن الرابع لاننتشار البغاء في مدينة القدس التي كانت بلدة

محلية لا مدينة، وقد ارتبط ذكرها بـ «ممارسة الرذائل»، بل إنّ أحد آباء الكنيسة، وهو القديس غريغوريوس النيصي (395-330 ت س)، اعترض على الحج إلى القدس لأن بائعات الهوى فيها

وأوقات محددة وقدمت لهن إيصالات ضرائب على الدخل.

مع انتقال بلاد الشام ومصر من العهد البيزنطي إلى العهد الإسلامي، وُوجه الحكام الجدد بمعضلة كيفية التعامل مع مسألة البغاء. علماً بأن القسم الأكبر من سكان الإقليمين الذين بقوا مسيحيين لقرون بعد العهد الإسلامي، هم من أهل الذمة، وبالتالي لا يحق للحكام الجدد التدخل في أمورهم.

الإخباري الطبري (923 ت س)، أشار إلى البغاء في جزيرة العرب وأرض السواد عندما كتب أن كسرى أنوشروان (5٣١-٧9 ت س) أمر بإحضار بائعات هوى من السواد والأهواز لعمال بناء قلعة المشقر الذين رفضوا العمل من دون توافر إناث. أما محمد بن جبيب (860 ت س)، فيذكر أن البغاء والبغايا «ذوات الربايات» كان منتشرا في دومة الجندل والطائف في «حارة البغايا». وقال إن كثيراً من الإماء كن يعشن في بيوت شعر وأن على أثار ممارسة البغاء في صور، التي كانت أسبادهن «كانوا يكهرون فتياتهن على البغاء».

ومن الإخباريين الآخرين الذي ذكروا البغاء في جزيرة العرب وبلاد الشام ابن قتيبة (ت 889 ت س)، والجغرافي أحمد ابن رسته (ت 9١2 ت س)، وصاحب «الفهرست» ابن النديم (ت 995 ت س)، ذكر أن هيثم بن عدي الذي كان من تلامذة الواقدي (ت 922 ت س) ألف كتابا عن أسماء بغايا قريش، والمسعودي (ت 956 ت س)، ولعل زيد ابن أبيه أشهر من أن يعرف.

ولا يستغني المؤلف من استحضار «كتاب الغاني» وشهزاد، كدليل على الأوضاع المرتبطة بالبغاء في ذلك الزمان. أما الرحالة الإنكليزي تشارلز دوتني (ت ١926 ت س)، فكتب أنّ ثمة ممارسات فحش كثيرة في المدينة، وفي غيرها من المدن التي يتواجد فيها جيش عثماني، ومنها «الزني والسكر»، والأمر ذاته ذكره ضابط البريطاني الفلنتنت كلتل هرلد وتشرد باتركنسن (ت ١959 ت س) وقال إنّ «أهل نجد كانوا يدعون البغايا للغناء والرقص والترفيه عن الزوار في حفل الختان، ولم يشعر أي من الحضور بالصدمة من ذلك».

أخيراً، يذكر الكاتب قراءه بأنّ كتب التاريخ لا تذكر الحكم في ديار الإسلام على أي بغبي بثمة الرثا أو الفاحشة...

باستشارة كتابيات الإخباريين آتفة الذكر، وغيرها، يصل الكاتب إلى استنتاج أن البغاء لم يكن محرماً في الإسلام، وأن المنع كان على القوادة فحسب. بناء على ذلك، فثمة تطابق بين التشريعات البيزنطية والإسلامية بخصوص هذه المسألة.

الآن سنركز على سرد الكاتب أخبار البغاء في إقليمين هما مصر وبلاد الشام:

مصر

يوضح الكاتب أن البغاء في مصر انتشر كما في الأمكنة الأخرى، أي حيث يتوافر جمع من الناس وأغلبهم من الرجال. الجغرافي المقدسي ذكر في مؤلفه «الحسن النقاسيم» أن شيوخ القسطنط يشربون الخمر ونساءهم لا يمتنعن عن الفجور، وأن لكل امرأة زوجين. أما الخليفة الفاطمي العزيز (ت 996 ت س)، فقد حظز على الناس الذهاب إلى

بني وائل على تخوم القسطنط في عيد الصليب، لأنه كان مكاناً لممارسة الفحشاء على نحو غير مسبوق. الحكيم (ت ١02١ ت س)، الذي عرف عنه مخالفته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمر ل ضمن أمور أخرى ـ بإغلاق الحوانيت، أي الخمارات ومنع بيع الخمر والغواني والآلات الموسيقية ومنع التعري في الحمامات، ومنع اختلاط النساء بالرجال في القوارب النهرية، التي كانت المكان المفضل للبغي لاستجلاب

الزبائن، ومنعهن أيضاً من زيارة أمكنة الخرج؛ أما المؤرخ الفاطمي عز الملك المسيحي (ت ١030 ت س) فتُذكر في «أخبار مصر» أن متولي الشرطة التي القبض على رجل وزوجه من المسلمين، وأمر بضربهما وعرضهما في شوارع القسطنط معلناً أن ذلك عقاب من يقود على زوجه للنصارى واليهود. والذنب هنا واضح وهو ليس البغاء. كما يذكر المؤرخ نفسه أن الشرطة أقت القبض على مخنت الذي نال العقاب بالتهمة نفسها،



بسبب قوادته لخمس بغايا في بيته، لكنه لا يذكر أي عقاب لبائعات الهوى. من الأمور الجديدة بالذكر أن بائعات الهوى كن يشتغلن في الفنادق الخاصة بالقوافل، وكانت الواحدة مهن تعرف بالفُنْدُقِية.

يذكر المقدسي انتشار ما يعرف حالياً بالمواخير (دور الرثا) في شيراز. أما البيروني (توفي بعد عام ١050 ت س) فتُكتب أن عضد البولة بن بويه (ت 983 ت س) فرض ضرائب على البغاء لتمويل جيشه، ما يعني شرعنة الخدمة وماسستها. المغربي (ت 1442 ت س) بدوره يذكر أن السلطان الناصر (ت ١3١5 ت س) ألغى بعض الضرائب ومنها المفروضة على «بيوت الفواحش». كما يذكر أن «المخكرات» كانت تنتشر على سد فطرة ترعة أبو المنجا في بعض الأعياد، ومن دون عقاب كما يذكر أن النساء والرجال كانوا يلتقون على ضفاف النيل في القسطنط لممارسة الفحشاء، لكن السلطان العزيز منع قادة الجند من البناء على ضفاف نهر النيل لمنع تحويلها إلى «دور رثا».

ابن سعيد المغربي (ت ١286 ت س – صاحب «النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة - القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب صنفه سنة من أهل الأندلس») فُكُتِبَ أن الحياة في القاهرة/ القسطنط تعمل إلى ما لا يرضى عنه أهل العلم. أما المؤرخ الأندلسي أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري (ت ١١88 ت س)، فُكُتِبَ أن الفقراء العرأة في القسطنط، «في ظواهرها ودواخلها» يتبعون شهواتهم كأن روحاً سكنتهم، وهم تحت تأثير الحشيش يرقصون عرايا في الشوارع ويقبضون علاقات مع الصبية، أي «اللواط». كما يذكر أنّ العامة

من الناس يحسّون المرز والخمر، ومسجوح للعواهر بالعمل. وفي بعض الأحيان، كان «أهل السنن» يأتون إلى القنأة بين القسطنط والقاهرة للتمتع بالمخكرات والفواحش، «ولا ينكر فيها إظهار أواني الخمر ولا الات الطرب ذوات الأوتار في بلاد المغرب».

في العهد الأيوبي، نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، سمح لـ «بيوت الفواحش» في الإسكندرية بالعمل مقابل دفع صاحباتها أو أصحابها ضريبة محددة لـ «الدويان»، ما أدى إلى تطور الماكز. أما تقي الدين عمر، ابن أخ صلاح الدين، فكان يملك العديد من الحوانيت (بيوت المرز) التي كانت تبيع الجعة (مزر)، وبالصضرورة حضور للبغايا فيها.

في العهد المملوكي، تحول البغاء إلى مؤسسة تابعة للدولة على نحو كامل. إذ يذكر المغربي أن الجباية من البغاء كانت تُعطي إقطاعاً، تماماً مثل الأراضي، وهو ما يؤكد الأب الدومنيكاني، وليم طرابلس (ت بعد عام ١273 ت س)، لكنه لاحظ أن الظاهر بيبرس منع تعاطي الخمر وبغايا، وهو ما يتفقده ابن دانيال (ت ١3١١ ت س). ويعد سلسلة من الحظر والسماح، رفع السلطان الناصر الضرائب عن بيوت الفواحش، بطريق العرفاء، وثمة ذكر لـ «انتشار الفاحشة»،



وكالات السلطان في القاهرة (مت الكتاب)

أي الرثا والبغاء، في الإسكندرية والقسطنط وعكا، في برديات الجندرية. يقول الكاتب إن المراجع تؤكد أن العسكر كانوا يحصلون على القسم الأعظم من الضرائب المفروضة على البغي «بنات الخطي»، وأن الخوانى كن يعملن أيضاً في البغاء، وإن القسطنط كانت مركز البغاء. وأخيراً أن العبيد والإماء كن يعملن في البغاء في مختلف الخانات والفنادق التي وجدت بقرب الجوامع والمدارس، على الأغلب. فعبد الباسط بن خليل (ت ١5١4 ت س) والسخاوي (ت ١497 ت س) أشارا إلى اثنتين من «بيوت البغي - بنات الخطي» في نهاية العصر المملوكي إحداهما يطلق عليه اسم «ربع البريزي»، وقعت بين سوق الكتب وخان الخليلي خلف المدرسة الصالحية. أما البيت الثاني من بيوت البغي، وكان ملكاً لأحد القادة العسكريين أتاكب أزيب، فوقع قرب جسر الموسكي.

المسيحيون في بلاد الشام شكلوا أغلبية السكان لقرون بعد الفتح، ولذا ليس من الخطأ القول إن بيوت البغي كانت منتشرة هناك، لكن ليس ثمة من ذكر لها في المراجع التي تعود للقرون الأولى من الحكم الجديد. لكن ثمة رسوم لنساء في مراحل مختلفة من التعري على جدران قصر عمره، توحى بأنه كان مكاناً للهو. أما المرجع الأول الذي وجد فيه الكاتب إشارة إلى «دور فسق» في بلاد الشام، فيعود إلى المقدسي (ت 990 ت س)، مذكراً بقوله إنّ المدن الواقعة على البحر أو الأنهر جميعاً كانت تعج بالفسوق. وثمة ذكر لحادثة في عهد حاكم حلب أسد الدولة صالح ابن مرداس، تقول: «فنفق كل من في الجامع إلا القاضي والمشايع» عندما قامت مجموعة من الشيوخ من بينهم شقيق الشاعر أبي العلاء المعري (ت ١058 ت س)، بهدم «ماخور» في معرة النعمان، وسجل المعري هذا

بصيرتة، لكنها متسامحة معه. كما انتشر البغاء إبان الاحتلال الصليبي، إلى درجة أن مؤرخي الحملة الأولى ألقوا بمسؤولية كل هزيمة عاندها على ممارساتهم الفحشاء، مع أنهم كانوا في مهمة مقدسة، من منظورهم؛ بل إن الحاجات من أوروبا القادمة إلى بلاد الشام، كن يمارسن السبغة والبغاء كأحدى طرق دعم مهمتهن مالياً؛ حتى الإمبراطور بربروسا ذهل لعدد البغي اللواتي انضممن إلى الحملة الصليبية الثالثة. كما نجد تكرراً للبغي الأوروبيةيات في المؤلف

الفارسي «حجر القوائد». نثي عرضنا بقول الكاتب إن البغاء في العصور القديمة والوسيلة المتأخرة كان مسجوحاً به في شرق المتوسط، وكانت الحكومة تعترف به وتفرض ضرائب على المداخليل. لكن القوادة وإجبار الإماء على البغاء كانا مخلوقين، لكن يتغض الطرف عن ذلك. أما الكنيسة فقد كانت بطرحه، لكنها متسامحة معه.

تصوير حصي لراقصة في «قصر عمره» الأيوبي في الأردن (مت الكتاب)



الخِبار — 7 السبت 7 ناثبث الأوٲ 20١7 المٲد 3292ثقافة وناس

في قصيدة «تغيبت في منزلي برهة...».

كما يرد ذكر «النساء العواهر» و«الزنا» والفنادق والخانات عند ابن القفطي (ت ١248 ت س) نقلاً عن هلال الصابي، في مدن شامية منها اللاذقية وبلدة اسمها «عم» تقع على خطوط التجارة من حلب واليهما، وكانتا تحت حكم الروم، أي في دار السلام، حيث حوينا جامعاً أيضاً. ويأتي ذكر ذلك عند ابن فضلان أيضاً. ويرأي الكاتب، هناك ذكر للبغاء وتصوير لحانة في القامة الثانية عشر من مقامات الحريري المصورة (ت ١١22 ت س).

أما نور الدين الزنجي (ت ١١46 ت س)، فقد ساوره الشك بعد هزيمته على يد الصليبيين، فرد العالم برهان الدين بلخي ذلك إلى احتساء الخمر وتواجد البغي في صفوف قوائه.

أما والي طبرية، عبد الرحمن بن نصر الشيزري (ت ١١93 ت س)، الذي كان في خدمة صلاح الدين الأيوبي، فُكُتِبَ في مؤلفه «تهابة الرتبة في طلب الحسبة - الثبأت الأزفون: تشتمل على جُهل وتفاصيل في أمور الحسبة» وقال: «وفتى سُمِعَ المُخسِبُ بافراًة عاهرة، أو مُغْنِية، استأنتها عن مُخصِبِها، فبأن عادتْ عززها ونفاها من الخُلب». كما يورد سبط بن الجوزي (ت ١256 ت س) في مؤلفه «مرآة الزمان» أنّ الملك العادل (١2١8-١200 ت س) أحضر غانيات لحفل زواج المؤرخ شمس الدين الذهبي صاحب «تاريخ الإسلام» (44 م)، فقال «وفى رجب، أدار الملك المظفر المُحمَّدُ الحُمرَ والخمر وما كان أبوه يظله، فقيل إنه ضَمَّنَ الخمرَ بدمشق والخنا [البغاء] بتلائمة ألف درهم... واعتذر بقلة المال ووقع الفرج».

ابن حلكان (ت ١282 ت س) ذكر في «وفيات الأعيان» (٥ م)، باب الملك الأشرف موسى الأيوبي «وكان في العقبة: ظاهر دمشق، خان يعرف بابن الزنجاري، ويجري فيه من الفسوق والفجور ما لا يحد ولا ما يوصف».

كما نجد ذكراً للخانات والبغاء والزنا والفسوق والفجور في مؤلفات الجزري، علماً بأن المغربي ذكر أن أهل حلب التي اجتاحتها الوباء «أغلقوا

